سوزان خواتمي
كاتبة وقاصّة سوريّة مقيمة في الكويت. تعملُ صحفيّة ومحرّرة في مجموعة ph7 للنشر. صدرتْ لها ٤ مجموعات قصصيّة: **ذاكرة من ورق (١٩٩٩)، كلّ شيءٍ عن الحبّ (٢٠٠١)، فسيفساء امرأة (٢٠٠٤)، قبلة خرساء: شجر يصعد شجر الحكاية (٢٠٠٦).**

في الانتظار

سوزان خواتمي .

في صباحٍ ينبئ غيمُه بشتاءٍ قادم، كان ضوءُ النافذة الشحيح كافيًا لملاحظة كفّيها المتشبّثتين بحافّة السرير، بعروقهما النيليّة النافرة، وبُقع الكلف التي تبرقش بياضهما الحليبيّ، فيما تُصدرُ صوتًا متشنّجًا يختلط بضجيج سيّاراتٍ تقطع شارعَ باب النصر منذ خمسين سنة.

إنّه الأسبوعُ الأخيرُ من أيلول ـ وهذا بالنسبة إلى مناخ حلب يعني انقلابًا نحو البرودة، أمّا بالنسبة إلى جدّتي فلم يشكّلْ فرقًا يُذكر باستثناء تحوّلها من مجموعة قمصان نومٍ قطنيّةٍ خفيفة إلى قميصٍ مشجّرٍ أثقلَ قليلاً ترتديه وترمي فوق رأسها حجابَها الأبيض الرقيق. لم تصغِ إلى محاولاتنا إقناعَها، بل سحبتْ قدميها من خفّيها ورفعتْهما لتتربّعَ فوق الفراش. هكذا بدا أنّ أحدًا منّا لن يستطيعَ زحزحتها عن سريرٍ خشبيٍّ بسيطٍ عقدتْ عليه رهاناتِ موتها الهادئ.

لم يكن الأوان قد فات بعدُ حين باعت سريرَها النحاسيَّ القديم، المزيّنَ بأفاعٍ تفحُّ وترفعُ رأسَها نحو عناقيدِ عنبٍ تتدلّى. دراما الحيوانات تلك لم تعد تعجبها، وعندَ أوّلِ فرصةٍ للتخلّص من تلك «الكوابيس» كما كانت تطلقُ عليها، نادت بائعَ الروبابيكيا المتجوّل، وقالت له بحزمٍ باترٍ: «شيل كلّ هذه الكراكيب.» وهكذا كان.

على سبيلِ الذكرى، لا بأس من العودة سنواتٍ إلى الوراء لالتقاطِ مشهدٍ مسلٍّ لجدّتي، وهي تُجرّبُ سريرَها الجديد. جلستْ تتهزهز فوقه، تجرّبُ راحةَ ردفيها اللحيميْن، تدقُّ بيديها القويّتين حشوةَ الفراش القطنيّة لتتأكّدَ من أنّه لا يُصدر زقزقةً، ولا يُسبّبُ قلقًا ليليًّا من أيِّ نوعٍ.

كانت سعيدةً تتمتم لحنًا ما، فيما تبسطُ ذراعيها نحو الطرفِ الأبعد من الفراش لتسوّي الشرشفَ. تتنهّد؛ فقد تخلّصتْ أخيرًا ممّا اعتبره المرحومُ زوجُها أثاثًا يدومُ العمر بطوله ـــ «عمره فحسب.» تضحك وهي تعلّق بمكرِ منْ لم يتأثّرْ بالانتظار؛ فبعد أن قضتْ شهورَ العدّة والتقطتْ أنفاسَها من سطوة الحزن، قرّرتْ أنّ الحياةَ خُلقَتْ لتعاش، فأوقفتْ أقراصَ النوم بعد أن تحرّرتْ من عسفِ أوامر جدّي في أيّامه الأخيرة. ولكنْ لم يخطرْ في بال أحدٍ أنّها ستتخلّص من مفروشات بيتها التي تناسب المتاحفَ الأثريّة أكثر ممّا تلبّي متطلّباتها البسيطة في الراحة.

بدأتْ بسريرها النحاسيّ: فسريره المزعج يسبّبُ لها الأرق، وارتفاعُه يضطرّها إلى ما يشبهُ القفزَ الحرّ. في يوم «التخلّص العالميّ» المحفور في ذاكرة العائلة، باعت جدّتي التسريحةَ العالية المطعّمة باللؤلؤ، مع مرآتها الكابية وأدراجها المخلّعة.

وساومتْ على قبقاب العرس، الذي اعتلته ذاتَ يومٍ ليتسنّى للأخريات إطلاقُ نظراتهنّ الحاسدة والتملّي بفستانها المطرّزِ بخيوطٍ فضيّةٍ باذخة. تخلّصتْ أيضًا من قدورها النحاسيّة، وتنازلتْ عن أوانٍ خزفيّةٍ أفنت أصابعَها في تنظيف تخريماتها البديعة. وباعت دون رمشةِ ندمٍ ملاعقَ الفضّة التي يندلق الحساءُ من أطرافها. وفيما كان بائعُ الروبابيكا يضحكُ في «عبّه» للممتلكات الأثريّة الثمينة التي راح يلتقطها بسرعةٍ قبل أن تغيّرَ تلك الساذجةُ رأيها، كانت جدّتي بدورها تستعجله ليغادرَ قبل أن يصل أحدُ أبنائها ويحاولَ إقناعها بأنّ ما تملكه «أنتيك» يساوي ثروة.

«أوف. خلصنا!» قالت واستراحت.

كنتُ لصيقةً بها؛ فرغمَ حضنها المكتظّ بالأحفاد، استطعتُ انتزاعَ مكانةٍ ما. أدمنتُ قربها، وشغفتُ بمراقبتها تضحكُ.. تثرثر.. تتمشّى باتّجاه سوق المدينةِ القريبة.. تتجوّلُ بين الحوانيت.. تشتري البيلون والصابون والدريرة، ثم تستريح في دكّانِ عمّي، تتفرّجُ على خلقِ الله.

لم تكن تحبُّ القهوة، ومع ذلك فهي تشربُها لو ضمنتْ مَن يفسّر لها ما يرسمُه ثفلُ البنّ على محيط الفنجان. شكوكُها حول الغيب، وتخوّفاتُها من عثرات الحظّ، تجعلها تتعوّذُ من الشيطان وتحوّطُ عائلتها بأدعيةٍ تقيهم الشرور. كانت تحبّني رضيعةً لا تطاق، وصغيرةً عنيدةً، ومراهقةً مزاجيّةً، وصبيّةً شرسة. بادلتُها حبًّا بحبّ، وحين قدحتْ في قلبي شرارةُ الحبِّ الأولى لم أخْفِ التفاصيلَ عنها. بطيبةِ صديقةٍ طبطبتْ على قلبي الدائخ وراء حبٍّ زميلٍ يتجاهلني. ومض بريقٌ في عينيها وقالت: «لا بأس من أن تحبّي أو أن تحَبّي، ربّي يطعمك الاثنين معًا، لكنْ لا تتركي البابَ مفتوحًا على الهذيان.»

في مساحاتِ الذاكرة العذبة تشحبُ كلُّ الوجوه ويبقى وجهُها في تمام عذوبته حتى بعد أنْ غارت وجنتاها، وتهدّلَ جفناها، وقصرَتْ، واحدودبتْ، وأهملتْ صبغَ شيبها، ولم تعد رحلتُها السنويّة إلى مدينتها العتيقةِ اسطنبول تَردُ على بالها بعد أنْ طاولَ الموتُ أغلبَ أقربائها.

كانت عافيتها تنسحبُ منها، ويومًا بعد يوم تتقلّصُ حركتها حتى اقتصرتْ على محيط غرفتها. وفيما عدا الزيارات المفاجئة التي يقوم بها بين الحينِ والآخر أحفادُها وأولادُها، فإنّ كلَّ ما كانت تفعله هو الانتظار. تتدثّرُ بشالٍ لا يفارق كتفيها، وتتابعُ ما ينقله لها بثُّ المحطّات التلفزيونيّة على مدار الساعة. تلعنُ الحروبَ وأزلامها، والعساكرَ والدبّابات وعنجهيّةَ الأقوياء. تتحسّر على الموتى، وتقول «الله يصبّر قلب أمهاتهم.» تتابعُ الفيضانات والزلازل على أنّها إشاراتُ غضبٍ إلهيّ. تتحسّر على زمن الحياء بعد أن صارت القنواتُ تبثُّ أفلامًا لأشباهِ عراة.

❖❖❖

لم ينتظم اضطرابُ خفقان قلب جدّتي طوالَ ليلةٍ كاملةٍ أمضيتُها إلى جانبها. جافانا النومُ وقضينا الساعات نستدعي ساخرتيْن حوادثَ وحكايات. لم يفلتْ منّا أحدٌ من أفرادِ العائلة، كنّاتٍ وأولادًا وأصهرةً وأحفادًا. وما إنْ طلعَ النهار حتى طلبتُ طبيبَ القلب، الذي نصح فورَ أن عاينها بنقلِها إلى غرفة العناية المركّزة.

بشفاهٍ مطبقةٍ وتقطيبةٍ عنيدةٍ تُواجهنا، أنا وأولادها الأربعة، تحوّلتْ إلى طفلةٍ حرون في مشهدٍ كوميديٍّ سيِّئ. ورائي مباشرةً يقف ممرّضان عاجزان بستراتٍ بيضاءَ يتبادلان النظرات. سيّارة الإسعافِ أسفل المبنى، وسائقُها يطلقُ بين الثانية والأخرى زماميرَ استعجاله، أمّا الطبيب فسبقنا إلى المشفى ليرتّبَ إجراءات دخولها.

أقف حائرةً أمام يقين جدّتي بأنّي سأنفّذُ رغبتها كما فعلتْ هي لسنواتٍ، وأشعرُ بالذنب يلفحني من كلِّ الجهات. أيّ حُججٍ تقنع امرأةً مثلها بأنّ أجهزةً طبيّةً ستتدارك الموتَ القادم، وأنّنا نلتمسُ شيخوختها كي تمهلنا شتاءً آخر نقضي برودته معًا؟ من يأتي أوّلاً: الحبُّ أم الواجب؟ أين ينتهي الواجبُ ليبدأ الحب؟ أو بالعكس أين ينتهي الحبُّ ليبدأ الواجب؟ أردت أنْ أسألها، لكنّها في تشبّثها المؤكّد بخشب سريرها بدت صمّاء، فقدتْ قدرتها على الفكاهة، وأدارت ظهرَها لتواجهَ مصيرًا لا تهابه.

لم أتمكّنْ من فضّ الاجتماع العائليِّ وصرف الممرضين وسيّارة الإسعاف. حملناها رغمَ أنفها. جرّدناها من إرادتها، فبدت خفيفةَ الوزن كريشة. مدّدوها فوق سرير العناية المركّزة، وأوصلوها بأسلاك الأجهزة الطبيّة لمراقبةِ وظائفها الحيويّة.

بدءًا من تلك اللحظة صمتتْ. أغلقتْ عينيها بضراوة، واستغرقتْ أسبوعًا ثقيلاً كاملاً في عنادها، قبل أن يكفَّ قلبها عن الخفقان. لم أسمع خلال ذلك الزمن سوى ندائها الخافت لبائع الروبابيكيا.